صور من الحياة :

يقتـــــل أخاه . . . !

« مهداة إلى الأستاذ كامل محمود حبيب »

للأستاذ عمر عودة الخطيب

درج الناس في القرية على أن يستقبلوا صباح اليوم الأول من العيد في المقبرة ، فيزوروا الأموات قبل الأحياء ، ويضعوا على قبورهم أكاليل الزهر ، وفروع النخيل ، وباقات الورد ، ويواسى بعضهم بعضاً ، ويخفف الخلي مصاب الشجي ، ويجفف القريب دمع القريب ... وذهبت صباحاً مع القوم ، وبدأت بزيارة ذوى القربى والأصحاب ، أقرأ للجميع آيات من القرآن ، وأستلهم الله لهم الرحمة والرضوان ، وما لبثت أن فوجئت — خلال تطوافي — بصيوان كبير فوق ضريح أبيض قد ازدان بالأقمشة الحريرية الزاهية والورود ، كأنه عروس مجلوة ليلة الزفاف وقد تدلت على صدرها أجمل العقود ، وكما يزدان رأس العروس ووجهها بالأصباغ والعطور ، قد أفعم رأس هذا القبر بأوراق الآس وأكمام الزهور ، فوقفت — من بعيد — أنظر إلى هـذا القبر ، وقد استهواني ما فيه من بهرج وزينة ، ألهاني عما يعاني ذووه من حزن ولوعة ، فسألت صاحبي عن أهل هذا الميت ، ولم يخامرني ريب في أنها (عروس تزف إلى قبرها[1]) ، وقد أقام لها أهلها وزوجها المفجوع هذا المأتم الحافل ، وهذا الزفاف الباكي ... أو خيل إليّ أن هذا صنيع حبيب رزئ قبل العيد بحبيبته ... أنس نفسه ، وروح فؤاده ... فدعاه الهوى — والهوى ذو أعاجيب — إلى ما أرى من عناية وتكريم ، ولم يفته أن يهدى إلى القبر — برهاناً على وفائه وصدق حبه — أجمل الورود وأشذى العطور ، إذ فاته أن يضع بين يدى حبيبته أزهى الثياب وأروع الحلى ... وكادت عيني تبض بقطرات من الدمع ، حزناً وأسى ، لولا أن صاحبي أخذ بيدي قائلا : هلمّ نزور هذا الضريح ونواسى هؤلاء المحزونين! وانحدرت معه إلى الصيوان ، فرأيت — على جوانبه — نسوة نائحات ، ورجالا باكين ، ولفت نظرى أن الجمع — وكان كثيراً — كان يبكى بحرقة لاعجة وحزن شديد ... وليسوا كلهم أهلا للميت أو إخواناً له ، فاعترانى خشوع ملك عليّ نفسى ، وهز ما بين جوانحى ، فغالبت دمعى فلم يذرف ، فجلست ساكناً مطرق الرأس ، أستمع — بحزن صامت — إلى هذا النواح المتواصل ، وهذا البكاء الطويل ، ورأيت — والله — أن هذا الدمع الغزير ، يغسل من النفس أوزارها ، ويشيع فيها الصفاء والنور ، ويجعلها بيضاء نقية ، وادعة كالحمل ، عذبة كالماء ، جميلة كالزهر ، فواحة كالعطر . ونظرت بعيداً بعيداً ... إلى ما وراء الأبد ... وقلت لنفسى : لو أن هذا الإنسان القاسى الذى يسعى للمال الكثير والجاه الوفير ، والسيطرة والطغيان ، متخذاً لذلك أعنف الأسباب وأقسى الوسائل ... لو أنه يختلف كل أسبوع ، أو كل شهر ، إلى هـذه المقابر ، ليتلقى منها دروس الرضى والقناعة ، والمحبة والصفاء ... لـكن هذا الضجيج ، وهدأ هذا العجيج ، وعاش الناس سعداء هانئين ، تظللهم المحبة ، ويرفرف عليهم السلام ...

ووثب إلى ذهنى حينذاك جواب ذلك الفيلسوف الصينى العظيم (كونفوشيوس) حين كتب إليه بعض تلاميذه : (إنى أرى للناس أخوة وليس لى أخ) ! فأجابه بقوله : (إن الإنسان الكامل ينظر إلى جميع من يسكنون بين المحيطات الأربعة كما لو كانوا اخوته ...)

قلت لنفسى بعد أن رددت هذا الجواب كثيراً : لو أن الناس جميعاً كانوا هكذا لاختفت من الدنيا هذه الحروب ، وانطوت — إلى الأبد — هذه المآسى والكروب ... ووثبتْ إلى ذهنى — مرة أخرى — محاورة ممتعة بين (بوذا) وتلميذه (رنا) ، تصور ما كان يحويه هذا من نفس طيبة ، وخلق كريم ، وتسامح عظيم ، وحب للانسانية ، ورحمة لها وعطف عليها :

بوذا : إنك يا رنا مرسل إلى شعب غضوب قاس متوحش سفيه ، فلو أنهم بادروك بالسب واللعن ، فماذا يكون رأيك فيهم؟

رنا : أرى أنهم أناس طيبون ، لأنهم شتمونى ولم يضربونى بيد ولا بحجر !

— فإن ضربوك بيد أو حجر ؟

— أرى أنهم أناس طيبون ، لأنهم ضربونى باليد والحجر ، ولم يضربونى بعصا ولا بسيف !

— فإن ضربوك بالعصا أو بالسيف ؟

— أرى أنهم أناس طيبون ، لأنهم ضربونى بالعصا أو بالسيف ولم يقضوا على حياتى !

(١) الرافعى (عليه رحمة الله) مقال بهذا العنوان فى « وحى القلم »

— فإن قضوا على حياتك ؟

— أرى أنهم أناس طيبون رحماء، لأنهم خلصوا روحي من هذا الجسم الملوء بالأدناس بأقل ما يمكن من الألم !

— هذا حسن يا برنا ! وإنك لخير من يستطيع أن يباشر تلك الشعوب البربرية .. اذهب يا برنا أنت الخالص تخلص غيرك وأنت المعزّى، تعز غيرك، وأنت الواصل إلى (النرفانا)[1]، فاذهب وادع إليها الآخرين !

وانصرفت بهذه الوثبات الذهنية عمن حولي، ولم أعد أبصر الشباب الباكين والباكيات، أو أسمع صوت النائحات الحزينات، ولم يردني إلى الواقع الدامع، إلا امرأة معفرة الوجه بالتراب، ممزقة الثياب والحجاب، يمشي خلفها شاب دامع العينين، قد اتشح بالسواد، جثنا على أحد جانبي القبر يبكي ويمرغ به وجهه، وجثت المرأة على الجانب الآخر تنتحب وتولول، وكان مشهداً محزناً رأيت فيه عيني تسحان بالدموع .. وبعد قليل رأيت المرأة وقد غابت عن وعيها، وفقدت صوابها، ونظرت إلى ذلك الشاب بعينين دامعتين جاحظتين قد اختلطت فيهما نار الحقد بدموع الأسى ... ونهضت إليه، وأهوت بيدها عليه تضربه، وهو ساكت ساكن لم يرفع بصره إليها، ولم يحاول أن يفر من أمامها، ونظرت إلى صاحبي ومن حولي، فإذا بهم جميعاً يبكون، وألسنتهم تتمتم قائلة: (لا حول ولا قوة إلا بالله ...)

أخذت بيد صاحبي ونهضت والدهشة ملء نفسي، والألم يحز في فؤادي، ولم يغب عن فكري أنها مأساة باكية، بيد أني لم أفهم منها شيئاً، وبقيت صامتاً أمشي بين القبور رويداً رويداً وأبو العلاء يصيح في أذني:

سِر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالا على رفات العباد

رب لحد قد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد

وما إن ابتعدت عن المقبرة، وغاب عن بصري مرأى الميدان، وانقطع عن سمعي صوت البكاء والنواح حتى التفت إلى صاحبي قائلا:

— يبدو أن ما رأيته فصل محزن من مأساة دامعة وقصة باكية ؟!

(١) من تعاليم بوذا: أنه كما أن الأرض تحمل ما يلقى فوق ظهرها من خبائث الأشياء دون ضجر وتتقبلها قبولها الطيبات، كذلك يجب على البوذي أن يحتمل بإباء احتقار الناس وإهاناتهم، وأن يتقبلها بنفس الروح التي يتقبل بها الإجلال والتشريف. وكما أن الماء يتخلص عن التراب ليروي الظمآن، كذلك يجب على البوذي أن يشعر أعداءه بنفس المحبة التي يشعر بها أصدقاءه.

فتنهد صاحبي وجفف بمنديله دموعه ... ثم قال:

— لعلك — يا صاحبي — لم تشهد من هذه المأساة إلا أقل فصولها ألماً، وأيسرها أسى وحزناً ... أتذكر — يا صاحبي — ذلك الشاب الوادع الهادئ الظريف الذي كان يملأ المجالس أنساً وصفاء، والذي كان زهرة عطرة بين أترابه، ونجمة لامعة بين أصحابه ... جميل ؟

وسكت صاحبي ثم قال: نعم ... جميل الفتى ...

فقاطعته قائلا: كان زينة القرية وبهجتها، وأنسها وأمنيتها، ماذا أصابه ؟!

فقال وكأنه يتحاشى النبأ:

— أسفاً على شبابه الغض! هو — يا صاحبي — هو ... (القتيل) الذي رأيت على قبره الميدان والأحزان ... وتلك التي رأيتها تولول وتنوح (أمه)، وذاك المتشح بالسواد الذي كانت تضربه فلا يتحرك هو (أخوه)!

— قتيل ... ومن القاتل ؟!

وهنا تململ صاحبي وهمس بأذني والدمع قد بلل وجهه:

— حقاً إنها مأساة! لقد قتله (أخوه) ... يا صاحبي!

— وكيف قتله ولماذا ؟!

— ذلك هو حكم القدر!

وهنا تمثل لي (بوذا وبرنا وكونفوشيوس) باكين محزونين، يلقون على هذه الإنسانية نظرة إشفاق ورثاء، وقد نظر كل واحد منهم إلى صاحبه — والألم يمض نفسه — كمن يذكره بمصير تعاليمه، ومآل مبادئه ...

ولقد أثار حديث صاحبي كوامن الألم في نفسي، والأسى في لبي ... فقلت: عليه رحمة الله ... ولم أشعر — قبل أن أترك يد صاحبي إلا ولساني يتلو قوله تعالى:

(واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين).

(دمشق — المزة) عمر عودة الخطيب